أحمد علاوي . . مُواطَنة عن بعد

د. م. عدنان وحود

نشأ أحمد في أسرة دمشقية محافظة ، وفي مجتمع دمشقي رعى تربيته الحضارية ذات الآفاق الإيمانية والإنسانية .

من هذه التربية كانت نظرته المتجهة دائماً إلى العلياء في جميع الأمور ، وتعوده على أن يبذل دائماً كل ما في وسعه ، ليكون لبنة في البناء ، الذي سوف يوصل إلى تقدم ورقي الحضارة التي تربى في كنفها .

في فتوة أحمد بدت قدراته الفنية التي لا يستهان بها إلى العيان ، والتي عبّر عنها ببناء آلة بخارية . كان ذلك من خلال ما تعلمه في دروس الفيزياء للمرحلة الثانوية ، وما خبره عن طريق إصلاح دراجته النارية . . هذه الآلة بفعاليتها الكاملة عرضتها إدارة ثانوية ابن خلدون على الطلبة تقديراً لمجهوده وإبداعه الواعدين .

كان أحمد يعتز بدينه وأمته ، ويرغب في أن تكون بلاده في مصاف الدول المتقدمة ، التي تُصَنَّعُ فيها أضخم وأرقى وأحدث وسائل العصر .. ومن خلال نظرته الطموحة تمنى لوطنه مكانة الأمم التي تقوم على صناعة الطائرات . فما كان منه ، إلا أن أنجز دراسته الثانوية ، وحزم أمتعته ، وانطلق إلى أوروبا ، ليدرس هندسة بناء الطائرات .. على نفقته فلقد كان عصامياً منذ نعومة أظفاره ، وتحت إشراف وزارة التربية والتعليم انطلق أحمد في مشروعه الوطني .

بعد دراسة أحمد اللغة الألمانية ، وحصوله على قبول في احدى الجامعات الألمانية ، التي تدرس هذا الاختصاص ، اشترك في دورة تدريبية في أحد مصانع تجهيزات الطائرات العمودية ، وانخرط في فصول الدراسة الأولية .. ولكنه سرعان ما أصيب بخيبة أمل ، عندما رفضت الدوائر المختصة في بلده وثائقه الدراسية ، لتأجيل خدمة

العلم ، ولتمديد الإشراف الدراسي . كان لهذا الرفض تبعات ، أولها حرمانه من زيارة وطنه الأم ، لأنه أصبح مطلوباً لخدمة العلم ، وثانيها انقطاع المعونة المالية المنتظمة له ، التي كانت تصله من والده – رحمه الله – بسبب سحب إشراف وزارة التربية عنه ، وعانى من قساوة الظروف ، ما لا يسمح هذا الموقف بذكره رغم كل ما عانى .

رغم كل هذه المعوقات ، لم تفتر عزيمة أحمد آنذاك ، وابتدأ بالعمل إلى جانب الدراسة .. ولكنه من المعروف أن الأعمال ، التي يمكن أن يزاولها الطلبة ، أعمال غير مجزية ، وتستهلك من الوقت والجهد الكثير ، مما يؤدي في غالب الأحيان إلى تغيير الاتجاه ، وصعوبة الوصول إلى الهدف في الدراسة .. وهذا ما حصل لأحمد ، ولمشروعه الوطني لبناء الطائرات .

بعد أن وضع أحمد مشروعه الأصلي جانباً ، وتنكر له بلده ، لم يكن بوسعه ، إلا أن يرتب أوراقه من جديد .. فقد نمّى معرفته بفن وتكنولوجيا الطباعة ، إلى أن أصبح تاجراً لآلاتها ومعداتها ، واكتسب بهذا قوت يومه ، وأعال أسرته التي أصبح أبناؤها سبعة .

كان أحمد ، يجسد في حياته وسلوكه وعلاقته مع الناس أرقى وأسمى ، ما نعرف عن خصال العربي المسلم ، من أخوة في الإنسانية ، ومحبة لكل الناس ، وصدق في المعاملة ، وكرم في الأخلاق وحِلْم عند الشدائد ، ومروءة ونخوة ونجدة وما لا يمكن حصره في هذا المقام .. إلا أن الصَفح والتسامح كانا سمتين بارزتين لأحمد .. فعلى الرغم من تنكر بلده له ، لم نسمع منه ، أي تبرم بهذا البلد ، أو أي انتقاص لهذا البلد ، وكان يتغنى بدمشق بين الأونة والأخرى ، وكلما سئل : أي شيء ترغب من دمشق ؟ كان يقول : خريطة بلدي .. مما يؤكد على ما يدفنه في أعماقه من حنين لمسقط رأسه . وكان يؤمن ، بأن ما هو حاصل ، ليس إلا شيئاً عابراً ، لا بد أن ينجلي .. كل ذلك على الرغم من فقدانه والدته التي أحبته وأحبها ، وكانت تردد باستمرار : أحمد أغلى أولادي على قلبي المملوء بالرضا عنه ، إلى أن توفيت بعد عشر سنوات دون أن يراها ، وفقد والده بعد خمس وعشرين سنة وهو في الغربة .

كان أحمد ، فيما جسده من خصال العربي المسلم علماً ناصعاً لحضارته ، وبلده ، ولم يكن ليحتاج ، أن يستخذي من شيء أمام أحد ، أو أن ينافق لأحد ،

أو أن يستجدي أحداً .. إن عزته وإباءه ، جعلاه يتجرع الغربة بعلقمها وبقساوتها إلى أن أصابه مرض عضال ، مما برح به ، وأعياه .. وقبل أن تستكين قواه للمرض ، استطاع مع أسرته الفتية ،ولأول مرة في حياته أن يسافر مع عائلته ليزور بيت الله الحرام ، ومسجد رسوله الكريم ﷺ وأن يجتمع عند بيت الله الحرام ببعض من استطاع من أشقائه وشقيقاته ، الذين فرقت بينهم الغربة القسرية أكثر من ثلاث وثلاثين سنة .. لقد كان موقف لقائه بأشقائه ، تقشعر له الأبدان ، ولا يمكن للقلم ، أن يصف ، أو يلّم بهذا اللقاء .. كان أصغر إخوته ، لا يتجاوز عمره الست سنوات عندما ودعه في مقتبل الغربة .. كان على أحمد في هذا اللقاء وفي آن واحد ، أن يرى أشقاءه وشقيقاته ، ويودعهم للمرة الأخيرة ، ويستودع الله دينهم وأماناتهم وخواتيم عملهم .. كان كأنه يقول لهم ، قولوا لمن في الوطن ، بأن أحمد على عهد الوطن به ، فهو لا يزال يردد ، ويجسد ، ما تعلمه منذ نعومة أظفاره :

حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذل النفوس الكرام

كان أحمد ، فيما تبقى من عمره ، وفي مصارعة المرض العضال عملاقاً .. قامت على خدمته ورعايته عملاقة أيضاً .. كانت عينها عليه ، وأذنها له .. كانت تنطلق نحوه بكل أحاسيسها ، ومشاعرها ، وبكل ما تملك .. لعلها تبعد عنه الخطر أو تستطيع أن تخفف عنه شرّ هذا الداء .. الذي أخذ مكانه المخرب في جسمه .

كان أحمد ، لا يشكو إلا لله .. ولا يستكين إلا لقضاء الله .. ولقد ودع أحمد هذه الدنيا ، وهو يقول لزوجه :

« **وصل الموكب يا سهى لينطلق بي إلى المسجد** » .

ولقد شيع أحمد عدد غفير من المسلمين العرب وغير العرب وعدد كبير من الألمان إلى مقبرة « هولس/ألمانيا » بتاريخ 07 صفر 1426هـ - 17 آذار 2005م . كما نقلت الصحف المحلية نبأ وفاته وأشادت بالدور الكبير الذي أداه للتقارب والتفاهم بين الحضارات .

رحل أحمد غريباً ، ودفن في ديار الغربة ، عزاؤه أن الإسلام كان وطنه الدائم ، الذي احتواه بحب وصدق .

رحمك الله يا أحمد .. وجزاك الله على مشروعك الوطني والإنساني وعنا وعن المسلمين خير الجزاء .. والعبرة لمن يعتبر .